

إن النصّ في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، هو
روح الخلفيّة ومادّتها، ونسيج المظهر وتألّقه،
وانطفاءاته أحياناً :

حضارة النص

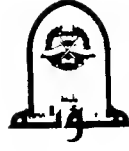
الدكتور سليمان الطراونة

إطّالة

ما من حضارة ساورت هذه البسيطة ألا وكان نصّها المنصوص عليه
أو غير المنصوص هو ميسمها الأول حتى لو لم يكن الأبرز، لكن النص في
سلسلة الحضارة السامية العربية الإسلامية ليس الأبرز فقط، وإنما
الأشمل، فكانت منذ بداياتها الأولى حضارة نص بامتياز ! في حين شغلت
نصوص الحضارات الأخرى حيزاً واسعاً من بنيانها لكي بقي انسحارها
بنصّها يقع في الدرجة الثانية أو الثالثة بالنسبة لمظاهرها الأخرى التي
شغلت مخيالها الحضاري، أما في الحضارة السامية العربية الإسلامية،
فقد كان الانسحار بالنص هو أساس بنية مخيالها الحضاري.

فموروثنا النصّي الشفوي والمكتوب، يتركب من مفردات نصيّة دائمة
الترميم لتركيباتها بذاتها، كما تتناسخ الأساطير، فتأخذ بنى أبعد ما تكون
في ظاهرها عن النص الأسطوري مثل العلمويّة والثقافيّة والعروبويّة
والإسلامية في نصوصها الانفعالية والمعلّنة، لكنها تبقى مثقلة بالميثية
المتخفيّة في عباءات نصيّة أسطورية ترقد خلف كل النصوص.

هذه الميثية المتغلّغلة في النسيج الداخلي لنصّنا الحضاري تتمطر في
نصّنا اللغوي والأدبي والديني والسياسي والفكري، وفي تناصّنا الثقافي مع
غيرنا، لكننا سنكتفي هنا بمقاربات جزئية من هذه الأطياف المتداخلة.



النص اللغوي

أثر الأعرابي ونصوصه اللاحضارية أظهر ! فهو المرجعية النصية الأولى في عصر التدوين وما تبعه من عصور زاهرة وحائرة ... إذ قلما يرجع علماء النص العربي إلى القرآن الكريم أو الحديث الشريف، بل إلى الشعر في حقبة الأعرابية ما قبل الاختلاط الحضاري، وذلك رغم إجلال أولئك العلماء للنص القرآني والحديثي، لكن النص اللغوي بقي أعرابي المنشأ ! فما زلنا حتى الآن نحط من قدر البدو ونفتخر بالبداوة.

* * * * *

وفي هذا السياق تظهر على السطح قضية الافتخار باللغة العربية، بل رفعها لأن تكون لغة آدم وأهل الجنة، وكأنها هبة ربانية وليست صيرورة تاريخية ! وليس أبلغ من رد ابن حزم على هذا الافتخار الذي لا تخلو منه أمة، إذ يقول : «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له ... ولم يأت نص في تفضيل لغة على لغة» وهذا من أجراً آراء علماء العربية التي كادت عند العرب تصبح نصاً مقدساً لا يجوز المساس بها، كأن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد المنزل بلغة البشر، وكأن اللغة العربية كلها قرآن كريم !

فهل اللغة العربية سرمدية أزلية ؟ هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأم كما يرى كثير من علماء الساميات، لكن هذا أبعد ما يكون عن الأزلية ! أما السرمدية فعملها عند ربي، لكن حقائق الكون والحياة توحى بأن القانون السرمدى هو التغير، وببطء تغير العربية لا

كل الحضارات الانسانية نصوص أولاً وأخيراً لكن أغلب هذه الحضارات تكون نصوصها خلفية واعية ولا واعية لها، أو جزء ممتد من هذه الخلفية وبعض جزء من مظهرها الخارجي، أما في شأن الحضارة العربية الإسلامية فالنص هو روح الخلفية ومادتها ونسيج المظهر وتألفاته بل وانطفاءاته أحياناً.

كلنا نعلم أن اللغة أية لغة شغلت الناس منذ فجر التاريخ، فهي في مركز الاهتمام الأول عند كل الشعوب، سواء التي وعت ذاتها أو التي لم تع ذاتها بعد، فالتواصل الاشاري شفويًا وتحريريًا هو مؤشر التجمع البشري والتأنس وتجاوز الحيواني ... ولم تحصل النقلة من المنطوق الهوائي الشفوي إلى المكتوب المنشأ إلا بعد مرور عشرات الألوف من السنين من المراوحة والتقدم البطيء، ورغم أن المنطوق كالمكتوب كلاهما نص إلا أن المكتوب نقلة حضارية ذات دلالات لغوية أدبية.

* * * * *

سامياً وعربياً، أغلب الكتب الدينية المعترف بها والمخفية ذات دلالات أدبية عميقة، وليس من عجب أن يكون القرآن الكريم مهيمناً عليها، لكن ألا يكون لنا أن نتساءل هنا تساؤلاً صادماً للوعي : هل القرآن الكريم هو الضمير اللغوي الأدبي للأمة العربية أم أن الشعر الجاهلي هو هذا الضمير ؟ فجامعو اللغة والأدب في عصر التدوين كان أستاذهم الأكبر هو الأعرابي البدوي كما يرى الجابري ! فهل شكل القرآن العقلية العربية أم شكلها الأعرابي ؟! للقرآن أثره الذي لا يُنكر، لكن

ضرورتها الحضارية والوجدانية والمادية
أكثر من أن تُحصى !

* * * * *

فالنصوص العربية المتساوقة المتكاملة
المتصارعة تأخذ ثلاث صور: النص
المؤسس الذي لا يكاد يتزحزح كأنه
سرمدى الصورة والمحتوى، والنص الذي
في سبيله للتأسيس كأنه في صيرورة
مستمرة، والنص الذي في سبيله للنقض
كأن مزاج التأسيس اللاشعوري للأمة
ينفيه، هنا ندخل في علائق لغوية حضارية
ذات مداليل دينية واجتماعية وسياسية
متداخلة متخارجة متساوقة متناقضة !

* * * * *

فالكتابة لغوياً بوابة مشرعة على حميا
عذابات دلالات النص الأولى والأخرى،
فمن ينسحر بالعربية يتعبد في مهب تلك
الدلالات، إذ أن تلك الدلالات تبليبل، لكنها
تُثري، فالنص تُمارس عليه اجتياحات
الدلالات من كل الاتجاهات المجتمعية
والفكرية، فهو حشد من المرايا المتناظرة
والمتعاكسة، المقعرة والمحدبة والمتدايرة
والمفتاوة !

* * * * *

أسئلة النص العربي تعود بنا دائماً إلى
ما قبل البدء حيث نتمثل زخم (كن فيكون)
والكلمة - الفعل والكلمة التخلق والانخلاق
لنستشعر الأبعاد المرجعية والمعرفية
والمنطقية والأسطورية التي تحاول جاهدة
خلق المستقبل صورة عن الماضي، هنا نرى
بألم أعيننا المفارقة بين الاصغاء للنص
لتمثله والتماهي معه للانطباق عليه ! فهل
النص هُم وقد تشكلوا حروفاً لتكونهم، أم

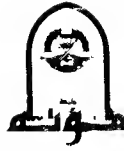
يعني جمودها ... لكنها أنياً توحى
بالسرمدية !

فاللغة العربية ليست بدءاً من لغات
الأرض، فهي كما يرى ابن جني تواضع
واصطلاح وليست وحياً ولا توقيفاً، ولا
يمكننا أن ندرك كيف أنها لغة آدم في الجنة
إلا إذا أخذنا بالرأي الذي يجعل آدم
المعني هنا هو آدم أبو الساميين ذوي
البشرة الحنطية كلون الأرض (الأدمة) !
فهذا الآدم يمكن أن يكون رمزاً للمتحدثين
بألم اللغات السامية القريبة من العربية،
ولأنه رمز الماضي والماضي فردوس مقصود
للنوع كما الطفولة فردوس مفقود للفرد،
فإن اللغة التي يُظن أنه تحدث بها تصبح
لغة أهل الجنة بامتياز !

* * * * *

اللغة كما يرى سوسير مؤسسة
اجتماعية لكنها في شأن العربية مؤسسة
فوق اجتماعية، فماضيتها يجري على
حاضرها، وحاضرها شاهد حي على حضور
التراث فيها، فتطورها معاكس لتطور معظم
لغات الدنيا، فهي ظاهرة مُلفتة لنظر
اللغوي، فكل اللغات تتطور كما العربية
لكن اللغات تبدأ من طور لا تعود إليه
بخلاف العربية التي تتطور نصوصها
تطوراً لولبياً يوحى أنها في كل دورة تعود
من جديد إلى البداية.

فلغات الأرض القديمة انفجرت
وانقسمت وابتعدت عن أصولها إلا العربية
التي تشكّلت من عدة لهجات كانت تُدعى
لغات، فصنعت الوحدة من المتعدد، وهما هي
بكل إصرار تواصل في الحاضر محاصرة
اللهجات المحلية لتصبح رمزاً لوحدة جديدة



توحيد ولا وسيلة حكم ولا مدخلاً للخلاص
الديني والأخروي فقط، وإنما كان وما
زال مدار التعبد والتقرب بالنص من أجل
النص، فحتى لو غابت عند البعض
المفاهيم تبقى رسوم النص هي مدار
ال جذب، فتحوّل النص على النص من
التفسير والتأويل إلى مجال الفنون
البصرية والتشكيلية والموسيقية، فليس من
عجب أن تزدهر فنون تجويد القرآن
والتغني به والتفنن بالمدائح النبوية من
خلال تصويت النص، وتزدهر الزخرفة
والخط والأرابيسك حول النص، فكلما
ضمّر الاهتمام بخفى النص زاد الاهتمام
بمترابطاته لأن القول الذي طلق الفعل
يصبح مجرد شكل، وليس كذلك النص في
حقيقته !

* * * * *

فالقول يعادل الفعل في شأن النص، إذ
التعبد والتقرب من المطلق والخلاص يكون
بقول النص بل وحتى بإضمار قوله، فحتى
لو لم يزد قوله درجة استيعابه يتخلق
القائل به وينال المثوبة بمجرد تكراره،
وقراءة النص الديني منذ الحضارة
السامية القديمة حرز مكن يحمي من الشر
والشياطين والجان وأذى الإنسان، وفي هذا
السياق كانت الرقى والتمائم للأطفال
والمرضى بالنص الديني بكل أشكاله، وحتى
للم يعترف التأويل الرسمي بهذا الغرض
من النص فإن الوجدان الشعبي لا يكاد
يرى النص إلا من خلال هذا السياق غير
المضموني المتركز على التقرب بالنص
والتحرز بقوله بل حتى بمجرد اقتنائه ...

* * * * *

وفي الآداب الشعبية السامية شبه
الدينية الاسم الأعظم للاله يبقى سراً

نحن ولما نتشكل بعد، أم أنه صورة من
سيأتوا ؟!

النص الديني

النص العربي حمل الاسلام إلى كل
مكان، والاسلام بالقرآن حمل اللغة العربية
عبر الزمان، فما زالت فتية رغم أنها أعرق
من أمهات بل جدات كثير من اللغات
الحديثة، ولخصوصية العلاقة بين القرآن
والعربية اختلط سحرها على أعلام الشعر
العالمي مثل (غوته) شاعر المانيا الأشهر
(بوشكين) شاعر روسيا الأشهر الذي
كتب قصائد يحاكي فيها النص القرآني،
بل أشار قائلاً وهو في صدد تلك المحاكاة
«أنا الآن أعمل من أجل مجد القرآن ...»
ولانحساره بالنص كتب «بينما كنت
مضطراً للهجرة من مكة إلى المدينة، كان
قرآني ينتقل من يد لأخرى، أما المؤمنون
فما زالوا ينتظرون» فكان تشرّبه للنص
سبيله إلى تقمص هجرة من جاء النص من
خلالهم.

* * * * *

وعلى أهمية القرآن إلا أن النص الديني
السامي سابق للقرآن بألاف السنين في
تشكله وتجلياته، فوصلنا منه أبرز حلقات
السلسلة لكن أغلب حلقاتها ما زالت
مدفونة تحت التراب أو في ضمير الأحقاب،
ومن تلك النصوص الشذرات السامية
الدينية وغير الدينية التي تمخض عنها
العهد القديم وروايات العهد الجديد وما
لحق بها مما اعترف به كنسياً ومما أغفل
لأسباب سياسية تاريخية معروفة في
المجامع الكنسية المتلاحقة.

كل هذه النصوص السامية شكلت
الوجدان السامي وتشكلت به، فكان النص
ليس طريقة هداية ولا منهاج حياة ولا أداة

الجنى إلّا بالنص المقدّس وتشققاته
الشعبية حيث البركة الحقيقية !

* * * * *

فالنص المقدّس وتدنساته البشرية
تلاوته غير قراءته إذ بالتلاوة يتم التقرب
والتعبّد، وبالقراءة المستسلمة تتم
الاستمرارية النصية ضد الابتكار النصي
والحضاري، لأن النص يملك الحقيقة
المطلقة التي تنشدها القراءة المتروية،
وتتضاعل إمكانية نقد أي نص يملك أي
وشيجة تقارب وهمية من النص المقدّس،

فالنص المقدّس حارس لكل النصوص
المقاربة له، فهو حارس للغة التي حملته
لكنه مفترس للتجديد فيها وفي فكرها إلّا
بقدر ... فالشعرية المتجددة تحكمها
الشرعية المتجذّرة وتظللهما الشعرية ...

ففي صلب نصنا اللغوي تتداخل الشعرية
بالشعرية بالشرعية، وما يُقص شعر هذه
للتحلل من إحرامها حتى يطول شعر تلك
للدخول في طوافها؛ فالشرع والشعر
والشعرية حقيقة كانت واحدة ذات مظاهر
مختلفة عربياً وسامياً، وما حصل النزاع
إلّا لقرب المنزع بينها !

* * * * *

فالعربي يستشعر داخلياً أن نصه
العربي بلغ الكمال دينياً، وأنه لن يبلغ
كمالاً جديداً إلّا بالعودة إلى الماضي حيث
الكمال اللغوي الحقيقي ! فماذا تغيّر في
الثقافة العربية اللاواعية والواعية منذ
الجاهلية وحتى الآن ؟ لأسباب دينية
عريقة في النفس السامية منذ فجر التاريخ

ويكتسب لسحريته وسريته قوة هائلة،
وتدور النصوص من حوله ولا تكاد تصيبه،
فهذا الاسم الذي إذا دُعي به الإله أجاب !
لماذا لا تكون الإجابة فورية بغير هذا الاسم
الخفي إلّا على الخواص المشتغلين
بالنصوص ؟ لماذا مجرد التلطف به
تستوجب له ؟! هل لأنه الروح الخفي
للنص، فهو الاسم الذي يمثل في الوجدان
السامي روح الرسم !

* * * * *

وقصة الملك سليمان تشير إلى أهمية
العلم بروح النص، فالجنى صاحب
القدرات الهائلة في العقلية العربية
والسامية ما كان ليستطيع إحضار عرش
بلقيس إلّا قبل أن يقوم سليمان من مقامه،
أمّا الذي عنده علم من الكتاب أي من
النص المقدس الذي يحوي الاسم الأعظم
فقد استطاع إحضاره قبل أن يرتد إلى
سليمان طرفه، ومدة ارتداد الطرف عند
العرب والساميين كانت أقصر وحدة قياس
للزمن، حتى أنهم توهموها صفراً زمنياً،
وحقّ لهم هذا التوهم لأن بقاء صورة المرئي
في العين قبل وأثناء وبعد انغلاق الجفن
توحي بأن برهة انطباق الجفنين ضئيلة
تقترب من الصفّر زمنياً رغم أنها أطول من
ذلك بكثير ... وقبل أن يرتد إلى سليمان
طرفه كان عرش بلقيس أمامه، فقدرة
النص المعنوية ذات الزخم المادي أقوى
أثراً من قدرة الجنى الذي كان مثلاً للطاقة
الهائلة والقدرة على إنجاز الأعاجيب، حتى
عزا العرب إلى الجن الأقوياء بناء المدن
العريقة مثل تدمر ! فالجن صانعو الخوارق
النص أقوى منهم وأسرع أثراً في إنجاز
الخوارق ... بل ما كان للانسي أن يستخدم



وما زال الماضي هو الفردوس المفقود، وما زال النص الديني الأول هو وعاء الكمال ... وجاء الحديث المشهور : خير القرون قرني ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ليعطي دلالة انحدارية تفسخية للتاريخ، فكان محور الرحى في الماضي والمستقبل النصي والحضاري دائم الالتفات إلى الماضي !

ولأسباب دينية تعبدية ورعية لم يأخذ العرب بالطريقة الصينية في الاستنساخ السريع بواسطة لوحات الطبع المعروفة آنذاك رغم أنهم أخذوا الورق الصيني ! وذلك لأن في معاناة النسخ اليدوي للنص عبادة فيها يعادل حبر العلماء دم الشهداء ! فهل من تقديس للعمل في خدمة النص أكثر من هذا التقديس، فالنص يعادل الموت استشهاده، بل هو يعادل الموت لدحر موت الروح، ولا يدحر موت الكون والوجود إلا النص معادل الموت ! هذا بالإضافة إلى أن الخشية المفرطة من الوقوع في خطر تحريف النص حالت دون استعمال طريقة الاستنساخ السريعة، لأن حبر أي حرف يمكن أن ينحرف بالاستنساخ المتكرر، والمدهش أنهم استثنوا هذه الطريقة المريحة حتى بالنسبة للنصوص غير الدينية، لأن أي نص عربي أو سامي مثقل بالدين حتى النصوص الخمرية والاباحية، فالخمرة والاباحية المستنكران دينياً كانا مظهران لأديان سامية عريقة أهمها أديان الخصب !

وهيمنة النص القرآني تتسق مع كل أشكال الهيمنة التي لا تكون إلا باستيعاب الماضي واستشراف الآتي ويشببها هيمنة آدم على الملائكة والجن باستيعابه لأسمائهم وأسماء الموجودات الأخرى، أي استبعاد آدم الوجود

والنص المقدس سامياً (إعرابياً) يتجلى في التوراة والانجيل والقرآن الكريم،

فالمديح النصي تعبد في أساسه بدليل أن أغلب النصوص المقدسة عندما تذكر الاله النموذج تنهال عليه بسيل من المديح ربما لتأكيد تعاليه، وهذا ما يكون في شأن أشباه الآلهة من ملوك وقادة ومصلحين إذ يصيغهم العقل والوجدان السامي صياغة أقرب إلى نموذج البطل الاله، والعجب العجائب أننا رغم إجتارنا لمنتجات عصر التكنولوجيا إلّا أننا نبالغ في المديح إلى درجة الذهول الصوفي، كأن نصوص المديح عندنا ما زالت شكلاً من أشكال العبادة، عبادة البطل الغائب الاله متمثلاً في البطل القائم، حتى لو كان رث الروح رث الانجازات !

* * * * *

وللهجاء سلطة سياسية عريقة كما للمديح، إذ بالنص الهجائي في الحضارة العربية الاسلامية يتوضح المثال السالب النقيض للذات الفردية والقبلية والقومية، وكلما ازداد المثال السالب سلباً كلما توضحت إيجابية المثال الموجب أي مثال الذات الكلية.

* * * * *

والهجاء ظاهرة سحرية دينية سياسية قبل وبعد أن تكون أدبية شعرية، بل إن سلطة النص الهجائي ذات طاقة تدميرية هائلة عند العرب والساميين، فطقوس التهنئة لالقاء الهجاء من حلق الشاعر لنصف شعر رأسه ومن ارتدائه ملابس تشبه ملابس السحرة والكهنة من أجل توقيع اللعنة على رأس من سيتساقط عليه الهجاء، لذا لا عجب لو فرّ الجميع من سطوة الهجاء ليس فقط لأسباب اجتماعية

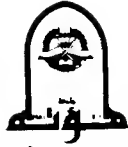
باستيعابه نصياً، فعندما امتلك القدرة على إطلاق الأسماء امتلك المسميات، وبذلك أصبح حتى الآن السيد المطاع في القبيلة ذا الصفة الدينية أو شبه الدينية هو الأجدر بإطلاق الأسماء كما الكهنة في العصور الأولى، فاللغة أو النص وسيلة مثلى من وسائل النفوذ الديني ومن ثم الدنيوي.

وأفة النصوص المكتوبة على النصوص الدينية أنها احتكارية وليست ابتكارية وأنها نصوص لا حوارية، النص فيها له اتجاه واحد من الالهي إلى النبوي إلى الاتباعي إلى الانسان العادي، والنص الراجع أو المرتد محدود أو مخنوق لدخوله الاعتبار في نزاع مع النصوص المؤسسة، فالنصوص للحوارية سلطوية مسبقة بخطاب المتعالي، وبتأسيس المتعالي تتعالى السياسة عن شرائط الواقعي، فتصبح بذلك اللغة مؤسسة دينية سياسية فكرية في حضارتنا قبل وبعد أن تكون مؤسسة اجتماعية، وتصبح قدسيتها ثقلاً بدلاً من أن تكون رافعة !

النص السياسي

ليس من عجب أن النص السياسي العربي ما زال حتى نهايات القرن العشرين يتلخص بلفظتين متناقضتين ومتساندتين، هما المديح والهجاء، فهكذا العرب الساميون منذ كانوا، فالبطل الاله يُمدح بما ليس فيه حتى تكتمل صورة النموذج، والعدو المعاكس للإله يُهجو بما ليس فيه حتى تظهر به صورة الشيطان الخالد.

* * * * *



تفتن في أساليب خدمة السلطة بابتكار ضروب من الاقصاء والاستيعاب النصي وتمارس إقامة مساحات من الصمت والاضمار ومساحات من الافصاح والاعلان، ويبرز أسلوب الماكنة الثقافية التي تتوضع كي تتحكم بما يجب أن يقال أو ما لا يجب أن يقال، بل ما يجب أن يُفكر به وما لا يجب أن يُفكر به، وما يمكن أن يخضع لشرائط التحديد أو الكشف أو الابتكار وما يُسلك في نظم التعقيب والتبرير والتكرار.

* * * * *

وفي عصور الانحطاط الحضاري والسياسي التي لم تبارحنا بعدُ يتفشى الاعتصام المستمر داخل حدود النص، فتكون الثقافة المثلي بعزل النص الديني والدنيوي من سياقاته وظروفه، فتغفل تاريخانية النص جملة وتفصيلاً، فيتحول النص القرآني مثلاً إلى (مصحف) ومن ثم أداة زينة وتبرك، بل ويوظف من خلال تطويقه بدلالات خارجة عن غايات النص أصلاً، بل مناقضة لدلالاته.

* * * * *

ولو عدنا لبدايات الدعوة الاسلامية لوجدنا أن النص الديني كانت دلالاته السياسية كاسحة، لذلك كانت عملية مقاومة الدين الجديد عملية ذات دلالات سياسية أكثر منها دينية وإلّا لما أشتروا أن يمثل الدين الجديد رجل من القرّيين عظيم، لذلك وجدنا صراعاً مستميتاً بين النص الديني السياسي المؤسس من قبل والنص الديني السياسي الذي في سبيله إلى التأسيس.

* * * * *

وإنما بسبب الدمار السياسي والجسدي الذي يجلبه الهجاء، وفي هذا السياق كانت أغاني السخرية التي ردها الاموريين لهجاء المؤابيين بعد أن حققوا عليهم انتصاراً عسكرياً، ولقد تبنّى الاسرائيليون تلك الأغاني بل ادعو ملكيتها وكان ذكرها شكلاً من أشكال إعلان الحرب لأن النص الهجائي يعادل الفعل، فعل القتل !

* * * * *

فالقول يساوي الفعل في نص المديح والهجاء، بل طالما كان القول بديلاً فاعلاً من الفعل، ولطالما ذهب أثر الفعل وبقي القول مخلاً لنفسه وللفعل، فبقيت مدائح زهير الشهيرة في ممدوحية وزهبت أعطياتهما له، بل إن صنيعهما ما كان لينال الخلود لولا نصوصه فيهما، وحق لنا أن نزعّم أن مدائح المتنبي في سيف الدولة هي التي صنعت سيف الدولة في الضمير العربي، ولولا المتنبي وشعره لكان سيف الدولة مجرد صانع دولة لم تدم طويلاً ...

* * * * *

والنص الهجائي في نقائض العصر الأموي ما كان له أن يشغل الناس لولا سلطة النص على النفوس، وليس من عجب أن يقضي الهجاء على بنية قبيلة بني نمير وأن يرفع بني أنف الناقة، فالنقائض لم تكن تسلية ولا لعب باللغة وإنما كانت حرباً باردة أثارها ممتدة !

* * * * *

النص والسلطة صورة من المثقف والسلطة إذ يتقنن القمع بالنص، فتتنوع وسائل تغيب الوعي التي تمارسها السلطة بواسطة الخطاب أو النص الذي تفرزه على المقاس المطلوب ماكنة صناعة الثقافة، التي

بين النص العربي الاسلامي ونصوص الحضارات الأخرى، لكن نص الحكم المرتبط بمقولة العم الأجدد في الميراث من ابن العم كانت كاسحة ! كأن الأمة كومة غم تنتظر الخلاص السياسي المزعوم من أحفاد العم أو أحفاد ابن العم الذين ادعوا أن ولايتهم حق يؤكد النص ! فالنص سياسة والسياسة نص !

النص الفكري

فكرنا العربي الاسلامي في لحمة وسداه نص، لذا دُعي فكرنا أو ردنا على فكر غيرنا بعلم الكلام أي بعلم النص، ولم يكن نص علم الكلام دفاعاً عن الدين بمفهومه الضيق وإنما دفاع عن الهوية الحضارية حتى لا تفرق في طوفان التناص مع الهويات أو النصوص الحضارية الأخرى الموجودة في البلاد المفتوحة أو المجلوبة بالترجمة من البلاد البعيدة. وليس من عجب أن يتصل علم الكلام بالفقه الأكبر أي بأصول الدين.

* * * * *

فعلم الكلام أي علم النص هو عقلنة للنص الديني من خلال الدفاع عنه بالأساليب العقلية النصية. فلو كانت الأساليب عقلية محضة، لكان علم الكلام فلسفة دينية متحررة من النص، لكنه ليس كذلك، إذ أنه نص عقلي ينطلق من النص النقلي ليعود إليه في خاتمة المطاف، فالنص هو الغاية والوسيلة في آن معاً.

* * * * *

وعلم النص الديني أي علم الكلام هو العلم الأعلى في الفكر الديني الذي احتوى

وبعد الهجرة تأسست دولة النص الجديد، وأخذت تقضّ منازعاتها الداخلية والخارجية عن طريق النص الموحى به أو النص النبوي أو بقايا النص الذي أقره النص الجديد، وفي هذا السياق نرى التناقض الظاهري بين مقولة أن الشعراء يتبعهم الغاؤون ومقولة أن من الشعر لحكمة، أيهما الحكم وأيهما التشابه ؟! إن تلمسنا دلالات الشعر السياسية وجدنا أن المقولتين محكمتان في شأن شعرين متناقضين، الشعر المناقض للنص الجديد هو شعر الغاوين بالمنظار الجديد، والشعر المنافع عن النص الجديد هو الشعر ذو الحكمة الذي يسدده جبريل في شأن حسان بن ثابت، رغم أن أجمل شعره وأمتنه هو شعر الغواية أو شعر ما قبل الهداية !

* * * * *

وفي العصر الراشدي أحدث انقطاع الوحي أو النص المنزل وانقطاع النص النبوي، أحدث هزة عميقة أدت إلى الردة الواسعة التي كادت تؤدي بالدعوة من أساسها، عندها أخذت نصوص التولية السياسية (الخلافة) تتصارع حتى كانت الفتنة ومن ثم الدخول في حكم بني أمية. وفي العصر الأموي ساد نصان، نص النقائض الذي عكس الصراع السياسي الاجتماعي ونص مقالة الجبر التي حاول معاوية بثها في النفوس لتبرير حكمه، وحاول من جاء بعده ترسيخها لاعطاء صورة دينية مقدسة لحكمهم الدنيوي ... ورغم تكرار عملية قمع الثورات إلا أنه غالباً ما ترد النصوص الدائرة في فلك الحاكم على النصوص الخارجة عليه ... وفي العصر العباسي كان الاختلاط العظيم



ازدادت الانحرافات والانزياحات إزداد
تصاعد المحل الهندسي الفكري بكل مدياته
الواقعية، وتفاعل المحل الهندسي لحركة
الأفكار ومداها الواقعي لحركة المجتمع هو
لباب حركة التاريخ وتوالد الحضارات !

* * * * *

ولغة الفكر ذات المحل والمدى إما لباب
غير قابل للاكتمال أو قشور مكتملة، فالنص
الفكري الثقافي إما أن تأسره الحركة
والتنامي فينشد الكمال غير القابل للتحقق
أو يدعي الكمال فيصبح مجرد قشور، لأن
الكمال النصي لا يدرك، فحتى تفسير كتاب
العربية الأكبر القرآن الكريم ما استقر
أبداً على كمال لا مزيد عليه، بل هو في تنامٍ
مستمر بتنامي الفكر والحياة، ولو اكتمل
لأصابه الجمود التام، فتفسير الكتاب
الواحد دائم النماء فكيف بتفسير الحياة
ألا يستوجب فكراً دائماً الاجتهاد، أم أن
الأمة عندما يصيبها الاجتهاد تتداعى
مقومات انطلاقها وبصيصها الانقياد،
وتتخلل الأفكار تحلل الحيات حتى يأتيتها
زمن الانوجاد الجديد ...

* * * * *

عندها تنحل الأفكار نصياً وتتفكك ثم
تتركب كما الجينات في سلاسل الوراثة،
تتصل وتنفصل في أنساق مبدعة، تتسق
الأفكار وتنسحق نصياً، فالتاريخ ليس
بتاريخ عسكري ولا دول وإنما تاريخ نصوص
تنشد الاتساق وتقاوم الانسحاق، حتى
الآثار المادية لولا ما تنص عليه من نصوص
صامته لما كانت لها أية قيمة، والأفكار
النصية ليست أحجاراً على طاولة شطرنج
الحياة بل هي المدار والانفجار ولؤلؤ كل
المحار ! ولا يتكاثر اللؤلؤ إلا بتنشيط

الفكر العربي لقرون، فهو عند البعض علم
التوحيد من خلاله ابتدع نص بشري من
أجل النص الالهي. فكل العلوم الدينية
تبتدىء وتنتهي بعلم التوحيد أي علم
النص، لكنه هل يستطيع الاستغناء عنها
جميعاً لقيامه بذاته في أصوله العميقة، رغم
أنها جميعاً تمتح من بئر العميقة، لأن
المنبع حيث علم النص !

* * * * *

والقرآن الكريم يدعو إلى العقل والتعقل
والعقلنة بتكراره تذييل نصوصه المتصلة
بالإيمان بقوله (الذين يعقلون)، وتمجيده
دور ذوي الألباب أي ذوي العقول، فالنقل
فيه منطلق العقل وليس قيداً عليه، لأنه
دون العقل لا يفهم نص النقل، ودون الفكر
النصي العقلي يضمحل الاهتمام بالنص
الديني بأن يصبح نص تعبد وبركة، فما
جدلية النص الديني من الواقع المتنامي
لولا النص العقلي، فالعقل ديناً ابتداءً
بالعقل أي القيد لكنه بنموه حاول اغتيال
القيود، ثم عاد العقل عقلاً من جديد
بهيمنة النقل المتعقل ماضوياً على العقل
المكبّل نقلياً، وفي هذا السياق طالما تجدد
الافتراق بين العقل العقل والعقل
الانطلاق ! وبناءً عليه يضيع المحل
الهندسي عقلياً وثقافياً !

* * * * *

والمحل الهندسي للنص ثقافياً وفكرياً
ودينياً يتحدد من خلال المدى الواقعي
والمسار التناسي، ومن ثم يتعين المرجع
النصي، فتتلاقح في هذا المسار النصوص،
ويغتصب فضاء النص فضاءات نصوص
أخرى، فتتنامو شبكة العلاقات وتتكاثر
الانحرافات والانزياحات المثيرات. وكلما

الفكري هيمنة اجتماعية تزول بها خلخلة الذوات وتخلية الذات، ويتجلى لا شعور النسق العلامي الدلالي للأمة من خلال لا شعور اللغة، فالنص هو صانع المجتمع ومن ثم الفرد، لأن الفكر النصي نسق اجتماعي قبل أن يكون إبتكاراً فردياً !

النص الثقافي

ليس من لغة في أوروبا أو أفريقيا أو آسيا لم تتأثر بالعربية أو بامتداداتها السابقة واللاحقة، ولا يُستثنى هنا إلا اللغات المنزوية عن مهب رياح الحضارة، ولم يكن ذلك لفضل النص العربي في جملته وفي مفرداته فقط وإنما لاتساع نطاق امتداد الحضارة العربية الإسلامية وبلوغها بالفعل وبالاحتكاك معظم زوايا العالم الوسيط. يبرز هذا الأثر الواسع النطاق في اللغات المسلمة غير العربية،

فنجد أثر النص العربي بارزاً في الخط، وفي اللفظة، وفي تركيب الجملة، وفي عروض الشعر وغيرها، ناهيك عن التأثير بالمضامين العربية الإسلامية، فنجد للنص العربي الشعري والقصصي والقرآني والتاريخي أبلغ الأثر في التراث الفارسي والتركي والأوردي والهندي والماليزي والأندونيسي والسواحلي والجمهوريات المسلمة في جنوب الاتحاد السوفياتي سابقاً، وقد ذكرنا مثلاً على أثره في شاعر المانيا الأشهر في الديوان الشرقي بالنص العربي بنية وأسلوباً وحواراً وسرداً وإشارة والمآخ، فرأينا أثر القرآن والحديث والشعر والقصص والتاريخ العربي الإسلامي.

* * * * *

المخيال الاجتماعي والثقافي بتحريك اللاوعي الأولي !

* * * * *

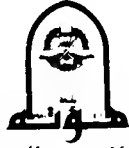
والتنشيط الفكري أو الثقافي لا يكون إلا بالخروج من دائرة ثقافة القول الضبابي إلى ثقافة الفعل الضمني، الخروج من ثقافة النص المفرغ من دلالاته إلى ثقافة القول النصي الفاعل، فالقول الذي لا يتضمن الفعل (شيك) بلا رصيد، وليس من عجب أن اللغة واللغو كلاهما نص وكلاهما من جذر واحد، لكن البون بينهما شاسع، فاللغة نص الوعي واللاوعي الثقافي، واللغو نص الالغاء الحضاري ! فالتنشيط الفكري لا يكون إلا باستنهاض المخيال الحضاري باللغة الفاعلة وليس باللغة المنفعل !

* * * * *

علم النص في الحضارة العربية الأعرابية (السامية) جامع لشتات الأصوليات والفرعيات ومستوعب لمقولات الفكر التفسيري والنقدي والبنائي، فالنصوص المترابكة تدخل في جدل خفي وظاهر، تتفاني وتتجاوز، تتراكب وتتوالد، فنضطر معرفياً لحفريات، الثقافة وحفريات الحضارة لاستيعاب السيورة والسيورة، ولنتبصر بالاستمراريات والانقطاعات والتحويلات والتشكيلات الخطابية ذات الطفرات المعرفية المنقطعة ظاهراً المتصلة حقيقة .

* * * * *

النص هو العقد الاجتماعي الحقيقي الذي يزيل التعقيد الفردي بتركيزه الفكري على المشترك الحضاري، فيكون للنص



العربي والمقامة العربية، وأما الفكر العبري فإنه بعد (موشه بين ميمون) تأثر إلى أبلغ حد بنصوص الفكر العربي الإسلامي ولا سيما الكلامي، فأخذت ترتب الفصول في الفكر العبري كما ترتب في الفكر الكلامي حتى أساليب الحجاج وتفصيل المسائل ...

* * * * *

أما عن تأثر النص العربي بنصوص الحضارات الأخرى فهو تأثر مبكر سابق لمجيء الإسلام بقرون، وخير دليل عليه الألفاظ غير العربية (المعربة) في نص العربية الأقدس القرآن الكريم، والجواليقي أجراً من تناول هذا الأمر، ثم حصل التأثير الأعظم في العصر العباسي الأول حتى كاد النص العربي يصبح النص الإنساني بامتياز، إذ صبت فيه أقية كل النصوص الحضارية السابقة وتدفقت منه أقية كل النصوص الحضارية اللاحقة، وليس من عجب أن يدعي حملة النص العربي آنذاك أن نصهم هو جامع النص الإنساني.

* * * * *

فحضارتنا النصية بامتياز منذ الخط المسماري الذي قبض على انفلات التاريخ، والخط الأوغاريتي الفنيقي الذي أوصل الشرق بالغرب نصياً قبل التواصل التجاري، والخط العربي الذي كان لقرون جامعاً للنص الإنساني بكل تفرعاته النصية، هذه الحضارة المثقلة بأسطورية حرفها، تراثها هو ثروتها التي تثري حاضرها ومستقبلها لكنه يثقل كاهلها ... فلا بد لحضارة النص من الخروج من أسر النص لتجاوز النص بعقلنة النص وإلا كان القصاص هو القص !

ورغم الخلاف الشديد حول تأثر (دانتي) في الكوميديا الإلهية برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، فإن تأثره بوصف العالم الآخر في القرآن وبقصة الإسراء والمعراج مرجحة بل بعض الباحثين يؤكدونها، فأنفاس النص العربي شديدة الحضور في أفياء النص الذي كرس اللغة الإيطالية، وليس هنا مجال عرض حجج الآخذين بالتأثر والنافين له، وأمر (ملتون) شاعر الإنجليزية الشهير في الفردوس المفقود يشابه أمر (دانتي)، والأخذ والرد في أمرهما لم يحسم بعد.

* * * * *

وما أكثر المستشرقين أو المستعربين من الإسبان وغيرهم الذين أوضحوا بإسهاب أثر النص العربي في الحضارة الإسبانية، وليس من عجب فثمانية قرون من حضارة متقدمة كفيلة بصبغ التراب، فاللفظ العربي دخل اللغة الإسبانية من كل أقطارها، والشعر العربي تلاقح مع الشعر الإسباني، حتى أشار البعض إلى أن شعراء التروبادور تأثروا بالشعر العربي في الأندلس، وأن قصص الشطار والعيارين العربية أثرت في (سرفتيس) في روايته الشهيرة (دون كيشوت) بل إن النص القصصي العربي أثر في (تشوسر) الأديب الإنجليزي المبكر في نصه القصصي الرائد (حكايات كانتربري).

* * * * *

وأثر النص العربي في النص العبري لفظاً ودلالة وصرفاً ونحواً وعروضاً وأدباً وفكراً، ولقد بلغ هذا الأثر حداً أدّى إلى التأليف بالعربية حتى في تناول وتعليم اللغة العبرية، ورأينا التأثير العميق بالشعر